جميلة

إسماعيل حامد

اسمها جميلة.. وهي جميلة بحق.. حورية تتلالأ في بحر الجمال البديع.. ولؤلؤة تتراقص وتتهادى بين أمواج لا تعرف إلا السحر.. وبقعة من الياقوت والزمرد تملأ فراغا لا بأس به من الفتنة.. لكن الابتسامة الرقيقة يغلفها بؤس السنين وعبث المقادير.. عينان عميقتان تُغرقان من ينظر ويتمنع.. وحاجبان عاليان حادان يقطعان من يتأمل.. وشفتان تفاحتان تبهجان من يتفحص ويتبين.. رأس فتان يتدلى على جسد أكثر فتنة.. هكذا يجتمع الشباب والجمال فتكون الأنوثة الطاغية المدوية.

فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها.. تحمل همًّا وغمًّا لا يحملهما شيخ طاعن ينتظر رحمة من ملك الموت الذي لا يعرف الرحمة.. فمنذ نعومة أظافرها وهي تصارع الحياة فتصرعها وتقاوم وتصرعها فتقاوم.. نشأت جميلة في أسرة بسيطة.. لأب وأم فقيرين.. لها أخ يكبرها بسبع سنوات لكنها أرجل منه.. بكثير.

ذاقت أمها مر العذاب على يد زوج جاحد لا يعرف الرحمة.. يبيع نفسه من أجل سيجارة هنا.. ونَفَس هناك.. وسهرة هنا ولهو هناك.. كانت الأم هي المتكفلة بمتطلبات الأسرة التي تضم جميلة وأختين أصغر منها سنا وأخا عاجز عن أن يصبح رجلا بمعنى الكلمة.. ومع إهانات الأم المتكررة من قبل هذا الأب القاسي.. طعنت في السن واستسلمت للفراش داعية من الله أن يقرب أجلها لتستريح من هذا العناء الذي طال لأكثر من عشرين عاما.

كان المصدر الرئيسي لدخل تلك الأسرة التعيسة هو دكان خضار صغيرا يقع على ناصية الحارة.. كانت الأم المسكينة قد قامت ببيع مصوغاتها بأبخس الأسعار لكي تشتري هذا الدكان.. وكيف لها أن تطعم تلك الأفواه وهناك زوج غارق في الملذات؟ ماذا ستفعل هي إن استسلمت وتقاعست ولم تفكر في مثل هذه الفكرة؟ إذًا لماتت تلك الأفواه جوعا.

ومع شغل الدكان.. تحسنت الحالة الاقتصادية للأسرة إلى حد ما.. لكن بصورة مؤقتة، كما يقال بالمثل الدارج: «اللي جاي على قد اللي رايح».. لكن الأب الذي لا يرحم ولا يضع في عينه «حصوة ملح» لم يترك الزوجة المسكينة في حالها.. لم يشكرها لأنها تصرف عليه وعلى أولاده.. بل تمادى في إهانتها وتمادى في طلباته ونزواته التي لا تنتهي.. وكأنه عذاب رباني وابتلاء شديد لا يقوى عليهما بشر.. كان يأخذ كل إيراد الدكان بالقوة.. فكان على استعداد أن يفعل أي شيء في سبيل أن يحصل على ما يريد من المال.. كان يسرق زوجته.. يبيع أي شيء يجده في طريقه من أجل الكيف.. تبا لك من رجل أحمق تستحق أن تعذب ولا تنعم بنعمة الموت المريح.

وفي يوم من الأيام.. كانت الأم المتوجعة عائدة من الدكان في غاية التعب، وما إن دخلت الشقة حتى قابلها هذا الوحش الكاسر.. بجمود قلبه الذي لا يعرف أن هناك شيئا اسمه رقة.. وبخشونة تتناسب حتما مع تصرفاته قال:

- أريد مالا.. أعطيني إيراد اليوم.

فما إن سمعت هذه العبارة حتى قالت في غيظ شديد:

- ألم يكفِك ما أخذت مني قبل أن أنزل صباحا؟!

فقال في حدة:

- لقد صرفته.. والآن أريد المال.

فقالت في ضيق:

- من أين آتي لك بالمال؟! أنا لا أعمل في بنك.. من أين أطعم أولادك؟!

فقال في لا مبالاة:

- ليست مسألتي.. الآن أريد المال وإلا...

فقاطعته صائحة:

- وإلا ماذا؟! ستضربني؟! لن يفيد ولن يغير من الأمر شيئا.. فقد تعودت على الإهانة منذ أن عرفتك.

فاندفع نحوها كالثور الهائج وأمسك معصمها في عنف ودفعها بيده الغليظة حتى سقطت مغشيا عليها من أثر الاصطدام في الأرض.. وأخذ ما في محفظتها من نقود.. ثم ألقاها في وجهها فارغة.. فانهارت الزوجة البائسة في بكاء هستيري واشتد نواحها ودعاؤها لأن يخلصها الله مما هي فيه.. واستجاب الله العلي القدير لدعائها وأراحها للأبد وترك على ظهر الدنيا رجلا لا يعرف الرجولة إلا اسما وشكلا.

وجاء الدور على الفتاة المسكينة «جميلة».. فمنذ توفيت أمها على أثر سكتة قلبية مفاجئة، لكنها متوقعة، حتى حملت هم كل شيء في هذه الأسرة.. حملت هم أب لم يحتمل مسئولية قط.. وهم أخ لم يفكر أن يلوث يده الناعمة في عمل شريف من قبل.. وهم أختين ذابلتين تنتظران الزواج.. وفوق كل هذا هم التفكير في لقمة العيش صعبة المنال.

وهكذا وجدت جميلة نفسها وجها لوجه مع طواحين الحياة التي تقطع وتفرم.. وتولت إدارة دكان الخضار.. كانت تصحو من نومها القلق في تمام الفجر.. تجهز الإفطار لأبيها وإخوتها، تتركه على المنضدة وتنزل من البيت.. تستأجر سيارة نصف نقل وتذهب بها إلى سوق الجملة العمومية في المنطقة.. تشتري ما يلزمها من بضاعة بالتقسيط أو على «النوتة» وترجع إلى الدكان قبل الظهيرة.. وتفرش بضاعتها وتبدأ عملية البيع ومجادلة الزبائن.. وتحمُّل سفاهة الشباب.. ثم ترجع إلى البيت بعد العصر.. فتجهز الغداء للأفواه المنتظرة.. وتقوم بتوضيب البيت وترتيبه حتى يُسقطها النوم على الفراش أو على كنبة أو كرسي في الصالة، وهكذا كانت تعيش في تلك الدوامة.. حتى سُرقت منها أغلى سنوات عمرها.. استطاعت في سنوات

قليلة أن تسد ديونها في الأسواق وشيكاتها عند كبار التجار.. استطاعت أن تسد احتياجات أبيها.. وتكف أذاه عن الأختين الصغيرتين.. كما استطاعت أن تدفع قيمة إيصالات الأمانة التي كان قد وقع عليها أخوها الطائش لأحد المبتزين في مقابل تورطه في مشروع فاشل.. كما استطاعت أيضا أن تزوج أختيها الصغيرتين وتجهزهما كما لو كانت أمهما على قيد الحياة وأكثر.. كل هذا فعلته في مقابل أنها نسيت أنها فتاة مثلهما.. أنثى تريد ذكرا ليعوضها عن كل شيء.. بخلت على نفسها ومتعتها واقتصرت من احتياجاتها الشخصية في سبيل إسعاد غيرها.. حرمت نفسها من أن تعيش بالإحساس الأنثوي الطاغي فيها من أجل أن تحافظ على استقرار أسرة كانت على وشك التشرد والضياع.. كان من السهل عليها بكلمة واحدة منها أو مجرد إيماءة من رأسها أن تجر وراءها أعتى الشوارب لكنها نسيت وتناست أنها أنثى.
نسيت أنها بركان أنوثة ينتظر من يثيره لينفجر.. نسيت الابتسامة الملائكية.. بل حرّمت على نفسها أن تحلم كباقي الفتيات بليلة العرس.. هذا حظها من الدنيا وقد رضيت به.. يكفيها أنها تكون في غاية الرضا عندما تشعر أنها صنعت شيئا ليتيمتين وسترتهما في زمن يصعب فيه ستر فتاة.. لم يزعجها أبدا أنها الآن على أعتاب الثلاثين من عمرها.. وزهرة شبابها تذبل يوما بعد يوم لأنها رفضت أن تُسقَى ويموت غيرها من الظمأ.